التراث الشعبي الغجري في مصر: المهن والحرف نموذجاً
Gypsy Folklore in Egypt
Professions and Crafts as a Model

إعداد

م.م. علا الطوخي إسماعيل
Ola Altoukhi Ismail
مدرس مساعد بكلية التصميم والفنون الإبداعية – جامعة الأهرام الكندية

أ.م.د. أشرف صالح محمد
Dr. Ashraf Saleh Mohammed
أستاذ مشارك بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد

Doi: 10.21608/kjao.2021.193067

استلام البحث: ١٤ / ٤ /٢٠٢١ قبول النشر: ١٦ / ٥ / ٢٠٢١

إسماعيل ، علا الطوخي و محمد، أشرف صالح (٢٠٢١). التراث الشعبي الغجري في مصر: المهن والحرف نموذجًا، ***المجلة العربية لعلوم السياحة والضيافة والآثار***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مج ٢، ع ٣، ص ص ١- ٢٢.

التراث الشعبي الغجري في مصر: المهن والحرف نموذجًا

مستخلص:

يرجع بداية وجود الغجر في مصر إلى القرن السادس عشر الميلادي، وقد اعتبروا آنذاك غرباء في أرض مصر. وتعيش جماعات الغجر منغلقة على نفسها على هامش المجتمع، وتتسم أحوالهم بالغموض، وتراثهم الشعبي الذي هو بمثابة إرثهم الثقافي الذي توارثوه جيلاً بعد جيل، بالإضافة إلى الأثر البيئي الذي اختلف تأثيره من منطقة لأخرى، هو ما انعكس على كامل أحوالهم. ولأن من المهام ذات الطبيعة العلمية البحتة الدور الذي تؤديه "دراسات التراث الشعبي" هي إلقاء الضوء على المراحل التاريخية السابقة من حياة الثقافة والمجتمع، لذا تستعرض هذه الدراسة بعض الحرف والمهن الرئيسة للغجر في مصر، مع ذكر الملامح العامة لكل حرفة والملابس الخاصة بها بناءً على جمع المعلومات والبيانات ذات الصلة بموضوع البحث من مصادر مختلفة. وقد توصلت الدراسة إلى أن مهن الغجر خضعت لطبيعة حياتهم المتنقلة، فكانوا يمارسون مهن وحرف بعينها تتماشى مع طريقة حياتهم غير المستقرّة.

كلمات مفتاحية: غجر مصر؛ المهن التراثية؛ جماعات الغجر؛ ملابس الغجر؛ تراث الغجر

Abstract:

The presence of gypsies in Egypt dates back to the 16th century AD, and at this time they considered strangers in the land of Egypt. Roma communities live in isolation on the margins of society, and their conditions are ambiguous, their folk heritage passed down generation after generation, in addition to the environmental impact that varied from region to region, is reflects in their entire situation. One of the tasks of the "Folk Heritage Studies" is to shed light on the previous historical stages of the life of culture and society. Therefore, this study reviews some of the main crafts and professions of the Gypsies in Egypt, stating the general features of each craft and its clothing based on the collection of relevant information and data from different sources. The study found that Roma occupations were subject to the nature of their moving lives, so they practiced certain occupations and crafts that were in line with their non-sedentary way of life.

Key words: Gypsies of Egypt; Heritage occupations; Roma groups; Gypsy clothing; Gypsy heritage

مقدمة :

ترتبط ثقافة الغجر ارتباطًا وثيقًا بطريقة حياتهم غير المستقرّة، حيث يفضل الغجر الأنشطة التي توفر لهم الحد الأدنى من مدة الاتصال والاستقلال. وتتماشى الخدمات التي تلبي الاحتياجات العرضية والعملاء المتغيرين باستمرار مع نمط حياة الغجر، الأمر الذي قد يتطلب مغادرة الفرد على وجه السرعة لحضور حفل زفاف أو جنازة في جزء آخر من البلاد. الغجر متعددون الوسائل التي يكسبون من خلالها لقمة العيش، ولكن هناك بعض المهن الرئيسة للغجر، مثل تجارة الخيول، والعمل بالمعادن، وقراءة الطالع، وفي بعض البلدان، قطف الخضار أو الفاكهة، وجمع المعادن القديمة، وبيع ريش الإوز، والحدادة ومشروعات التّجارة الصّغيرة.

وقد ظل الغجر لفترة طويلة مشهورين بأنهم موسيقيون، وقد كسب كثيرًا منهم شهرة في عزف الكمان والبيانو والرقص، وفي بعض المناطق كانوا يعملون في الفنادق والمطاعم للسمر، وفي مناطق أخرى كانت الفنادق والمطاعم تزورها فرق من الغجر ليلاً، وفي كل مكان تعمل نسائهم بالعرافة، وخاصةً قراءة الكف، وكذلك اشتهر الغجر أنهم صنّاع عرائس ودُمى، وفي مناطق أخرى يعمل الغجر في أعمال الأخشاب، وتجارة الخنازير، وصناعة دبابيس الملابس، وفي الغالب يعمل الغجر الأجانب كحدادين، ونحاسين كما يقومون بعمل السلاسل، والمناخل، والأمشاط، والحصير. (أسامة، ٢٠١٨)

وقد حدث تعديلات للمهن التقليدية التي يقوم بها الغجر طبقًا لطبيعة وعادات البلاد التي يقيم فيها الغجر، ونتيجة لدرجة التحضر التي تسود البلاد التي يعيشون فيها، ففي إنجلترا -على سبيل المثال-ارتبط الغجر ببعض الأعمال مثل: أعمال الخردة وخاصةً الحديد، فكميات كبيرة من الصلب الذي يُعاد تصنيعه في إنجلترا يأتي عن طريق تجارة الخردة من الغجر، إذ يشترون السيارات القديمة بأثمان زهيدة ويفكونها ويبيعون الأجزاء المختلفة للتجار المختصين. كذلك الزجاج والمعادن وجمع الخرق والثياب البالية، ويعمل فيها كثير من النساء وقليل من الرجال. كما أنهم يتاجرون في العطارة، وصناعة وتركيب الأسنان، وإحياء الحفلات، وبيع الكُحل، ودق الوشم، وختان الإناث، وتعمل نسائهم أحيانًا كمرضعات. (حيدر، ٢٠٠٨) وتعتبر مهنة الرقص من أهم المهن التي تشتهر بها الغجريات ويسمى "رقص الغوازي".

يعمل الغجر في مهن محددة لم تتغير منذ أن جاؤوا إلى مصر، أشهرها: تجارة الخردة، صناعة الأراجيح، تصليح الأقفال، علاج الحيوانات، ألعاب السيرك مع حيواناتهم المدربة من قردة ونمور وثعابين وأسود. كما تشتهر نساء الغجر بأعمال السحر، وقراءة الطالع، والتنبؤ بالمستقبل. وتعمل الكثيرات منهن غوازي (راقصات) في الأفراح الشعبية والموالد. والغجر الذين يسكنون في صعيد مصر يمارسون حياة التجوال مصطحبين معهم

خيامهم التي ينصبونها على مشارف المدن والقرى خلال الأعياد والموالد لممارسة الغناء والرقص ورسم الأوشام وقراءة الطالع. (شوشة، ٢٠١٦)

١- الحواة

الحَاوِي هو الذي يَرْقِي الحيّات ويجمعها، والحَاوِي رجلُ يقوم بأَعمالٍ غريبة والجمع حُواةٌ. (المعجم الوسيط، ٢٠٠٤) وتشبه مهنة الحَاوِي الغجر كثيرًا، لأنها مثلهم تحمل في طياتها الكثير من الأسرار، مهاراتهم وخدعهم محبوكة ومدهشة، وتجد المتمكنون منها وأكثرهم مهارة هم من مجتمع الغجر يسمون "حواة" لاستخدامهم الثعابين والنار في ألعابهم، لديهم الكثير من التعاويذ المتقنة، تسمعها ولا تفهمها، تمتمات عجيبة يقف الكثير عندها. (الجرادي، ٢٠١٩)

ينشق من لقب الحَاوِي مهنتان مختلفتان لكلاً منهما الشكل والمضمون والوظيفة التي تتناسب معها ومع مَنْ يمتهنها. فهناك الحَاوِي الذي يقوم بأعمال غريبة ويتخذ الساحات العامة مسرح له، وهناك أيضًا الرفاعي أو صائد الثعابين ويطلق عليها أيضًا الراقون أو سحرة الثعابين، وهو مَنْ يقوم بجمع الحيات والاستعراض بها، والحَاوِي في النوع الأول كان في وقت من الأوقات هو الوسيلة الوحيدة لتسلية الناس وإبهارهم بألعابه العجيبة في المدن والقرى والنجوع والكفور سواء في الوجه البحري أو القبلي وفي القاهرة.

أعمال الحَاوِي قوامها خفة اليد مثل النوم على المسامير والزجاج المكسور، وإخراج النار من فمه، وإدخال سيف طويل إلى جوفه، أو إخراج أرنب من طاقيته، أو بيضة من خلف أذن أحد الأطفال الذين يشاهدونه، حتى صارت مهارته وخفة يده مضرب الأمثال. يمارس الحَاوِي مهنته بين الناس في الأماكن العامة، وهو أكثر ما يظهر في الأعياد العامة والأفراح الشعبية والموالد، كما نجده أيضًا في الأوقات أخرى. (بدراوي، ٢٠١٨)

يجوب الحَاوِي الشوارع وبين المقاهي لإقامة عروضه فيلتف حوله حلقة من المشاهدين ليحول الشوارع والحارات والشرفات وبلكونات البيوت إلى مدرجات مسرح ضخم حاشدة بالجماهير ويأتي بحيل مختلفة. يبدأ عروضه بكلمات متكررة حيث يقول "بصلي على رسول الله وكل مَنْ له نبي يصلى عليه" فيلتف حوله الجميع ثم يبدأ العرض نفسه باللعب بالنار من أجل لفت الأنظار إليه، ثم يقدم باقي فقراته، وبمجرد أن ينتهي من عرضه يحظى بتصفيق حار منهم، وبعدها يقدر المتفرجون مجهوده حسب جودة العرض المقدم ودرجة الإبهار في الأداء، ويعطونه ما يجودون به عليه من النقود دون أن يطلب منهم ذلك. كما يستعمل الحَاوِي أحيانًا في ألعابه صدفة كبيرة تسمى "زمارة الحَاوِي" ينفخ فيها فيصدر أصواتًا مختلفة. (لين، ٢٠١٣)

وقد واتت الفرصة للباحثة لمشاهدة عرض من هذه العروض في مرحلة الطفولة، وانجذبت إليها وأدهشها كثيرًا كباقي المشاهدين، وترك بداخلها الكثير من الأسئلة التي لم تجد

سبيل لتفسيرها إلى الأن، مما كان له أكبر الأثر في الاحتفاظ بما شاهدته داخل الذاكرة إلى الأن.

ويرتدي الحَاوِي ملابس تتناسب مع طبيعة مهنته والحركات الجسدية، فقديمًا كان يرتدي الحَاوِي جلباب طويل ينتهي باتساع في الذيل، يضم الوسط بحزام يكون "بليزون" أو قصة تضم الجلباب من المنتصف وبفتحة رقبة على شكل سبعة، وفتحة زراير أمامية، وأكمام طويلة تنتهي باتساع تُرفع إلى أعلى وتثبت بشريط حتى لا تعوق حركة العمل، وبها جيوب كبيرة من الجنبين. يحمل شنطة كبيرة تحوي كل ما لذ وطاب من المعدات والأدوات التي يستخدمها في خداع الناس، ومنها جاءت كلمة (ياما في الجراب يا حاوي)، وعلى الرأس يرتدي "عمامة أو طربوش" وبأقدام حافية.

ومع الوقت اختلفت ملابس الحاوي وتعددت مهاراته لتناسب أكثر التطور الخاص بالمهنة والحركة الانفعالية والجسدية اللازمة لطبيعة العمل، فتأثرت هيئته بالاتجاهات الحديثة للملابس لتمكنه من أداء عمله وحتى لا تعوق الخفة في الحركة.

ومع تطور الحياة اندثرت هذه المهنة في مظهرها الشعبي وخرجت بأشكال أخرى أكثر تطورًا وإبهارًا. ولكن مازال الحاوي الشعبي يبحث عن لقمة العيش بطريقته التقليدية لتقديم الفقرات الاستعراضية، من خلال أشخاص من الغجر يتم إطلاق لقب الساحر عليهم.

٢- الراقون

الحاوي الرفاعي أو صائد الثعابين أو الراقون، وهو نوع آخر من الحواة يُطلق عليهم أيضًا (سحرة الثعابين)، وهم رجال من الغجر يمارسون عملًا غريبًا غامضًا ومليئا بالأسرار يتلخص في استخراج الثعابين الكبيرة والصغيرة من المنازل الريفية، وحوش الحيوانات والطيور وخلافة، ومن بعض الشقق في مساكن المدن والمحافظات في قليل من الأحيان. (الجرادي، ٢٠١٩)

يتعيش من الغجر فئة تشتهر بالطواف في البلاد لرقي الثعابين وإخراجها من البيوت، حيث يُعَدّ لهم بمثابة عملًا وافرًا، غير أن أرباحهم تكاد تكفل لهم معاشًا زهيدًا. ويدور حوله جدل كبير ما بين مدرك لأهمية هذا العمل الذي ينقذ الأهالي من خطر لدغات وعض الثعابين، وما بين غير مصدق للأمر، كما يعتبر البعض هذا العمل مجرد استعراضات ولا تمت للواقع بصلة.

ومَنْ يقومون بهذا العمل يقولون عن أنفسهم إنهم يحملون عهد سيدي أحمد الرفاعي، ولا يستطيع أحد منهم البوح بهذا العهد، لأن إفشاء هذا السر يبطل مفعوله، وأنهم أيضًا قد توارثوا هذه المهنة وآدابها وقواعدها عن آبائهم وأجدادهم والذين يعتبرونهم روادهم في مزاولتها والذين يكنون لهم كل التقدير والاحترام.

ويُزعم الغجري الذي يقوم بهذا الأمر أنه يكشف عن الثعابين التي تسكن المنازل، ويجتذب ما يوجد منها، كما يجتذب الصائد الطائر إلى الشبكة بسحر صوته، دون الاستعانة

بحاسة النظر، ويكون ذلك بواسطة رائحة خاصة، وهو يعمل في وضوح النهار يحيط به المشاهدون، بعد أن يفتشه المنكرون ويجردونه من ملابسه، ومع ذلك كان ينجح تمام النجاح. (لين، ٢٠١٣)

ويتخذ الراقي أثناء عمله هيئة الغموض ويضرب الحائط بجريدة قصيرة ويصفّر، وينقّ بلسانه، ويبصق على الأرض، ويقول: "أستحلفك بالله إذا كنت فوق، أو إذا كنت تحت، أن تتقدم، استحلفك بالله الأعظم، إذا طائعًا تقدم، وإذا كنت عاصيًا، مت، مت، مت". ويُخرج الراقي الثعبان بعصاه عادةً من شق بالحائط، أو يسقط من سقف الغرفة. وهناك منهم الهواة الذين يبدئون عملهم بالاتفاق مع أحد خدم المنزل ليدخل فيه ثعبانًا أو أكثر قبلا. ومنهم المحترفون الملمون بوسائل طبيعية ثابتة يكشفون بها عن الثعابين في مخابئها ويجذبونها منها. غير أنه من المحقق أن أمهر شخص فيهم لا يجرؤ على حمل الثعابين السامة قبل أن يقتلع نابها. (لين، ٢٠١٣)

وصائد الثعابين يضع مادة خاصة على العصا التي يحملها في يده، ويبدأ بقراءة تعاويذ يحفظها، يسمعها الثعبان فيخرج من جحره على العصا ليتلقاه بيده، ويمسك بحركة سريعة رأس الثعبان ويضعه بين الإبهام والسبابة، فيشل بذلك حركته، مما يجعله شبيهًا بعصا أو قطعة خشبية. ولإخراجه من حالة الجمود يمسكونه من ذيله ويجرّونه أو يرمونه على الأرض، وبذلك يسترد الثعبان حواسه، ويضعها في آنية أو حقيبة كبيرة تكون دائمًا معه ومن ضمن أدواته، مليئة بزواحف بعضها مكدس فوق بعض. وعن عادة البصق في فم الثعبان التي نجدها عند الحواة في الوقت الذي يردّدون فيه تعاويذهم لشل حركته، فهي ليست سوى حيلة لإثارة انتباه المتفرج، وتحويل أنظاره عن عملية الضغط على الرأس بالأصبعين.

وهناك نوعان من الثعابين فمنها الهادئ الذي يخرج في سلام دون معاناة، وهناك العنيد الذي يحتاج أحيانًا إلى العنف، حيث يضطر حينذاك صائد الثعابين إلى استخدام وسائل عنيفة معه من أجل إخراجه من المكان الذي يختبئ فيه. وإجمالًا؛ فإن هذا المشهد غريب أكان حقيقيًا أم مصطنعًا، وسواء أكان سحرًا أم حيلة أو مهارة فهو يستحق أن يُشاهد، والوحيد الذي لن يجد فيه أي متعة هو رب المنزل الذي يرى الثعابين تزحف على جدرانه. (مالوس، ٢٠١٣)

ويعرف الحاوي (صائد الثعابين) بقامته الضخمة وبشرته التي لفحها الشمس. يرتدي جلباب إفرنجي بنصف ياقة يصل إلى قدميه، أو جلباب بلدي يصل طوله إلى نهاية القدمين، ويصنع الجلباب غالبًا من قماش "الترجال" الخفيف، وأحيانًا يرتدون حزام طويل يلف حول الوسط ويعقده حتى لا يعوق حركته أثناء العمل، أو يلف حوله الجلباب أثناء أداء عمله، والجلباب بأكمام طويلة يشمر عن ساعديه أثناء استعراضه، وعلى الرأس يرتدي "طاقية" حتى تحجب عنه أشعة الشمس، وبدون حذاء في الغالب.

٣- العرافة

مهنة العرافة هي ممارسة للتنبؤ بالمستقبل، وعادةً ما تُمارس بشكل فردي باستخدام وسائل خفية أو خارقة للطبيعة، وهذا الفن التنبؤي المكتسب ليس أكثر من مهنة امتهنها الغجر حتى أيامنا هذه كطريقة لكسب العيش، ويمكن أن تكون التنبؤات مصدرًا للتسلية واللهو، ومعظمنا رأى صورة حية للغجرية التي تقرأ الطالع.

وتظهر أشكال متعددة من العرافة في شتى أصقاع الأرض، وتتضمن المواضيع التي يتنبأ بها العرافون في العادة على احتمالات مستقبلية للعلاقة العاطفية، أو الحالة المادية، أو إنجاب الأبناء والصحة والمال والحُب، وهي الموضوعات المفضلة لهذا النشاط التنبؤي الخادع. (Pognon, 2012)

وترتبط العرافة في أذهان العامة على نحو تقليدي بشعب الروما (الغجر)، فمنذ وصول الغجر إلى أوربا عُرف عنهم بأنهم يمتهنون فنون التنبؤات، على الأخص مسألة قراءة الطالع وقراءة الكف. وكانت الغجرية تقرأ خطوط الكف، وتمنح البركات مقابل قطع نقدية بسيطة، وذلك في القرن السادس عشر. (غارثيا، ٢٠١٩)

لقد اقترن السحر والشعوذة باسم الغجر، فمارس النّور العرافة حيث يمكنهم التحدث بدقة عن جميع أحداث الماضي والمستقبل، ويعترف الغجر أنفسهم صراحة عندما يكشفون عن الأمر بأنها موهبة ثقافية اكتسبوها عبر العصور، وقد تم تطويرها من قبلهم بذكاء مكتسب من خلال معرفتهم بنفسية البشر، مما ساعدهم على الكسب الاقتصادي وبالتالي في خديعتهم. (غارثيا، ٢٠١٩) وعرف عنهم إن لعنة العرافة الغجرية حتى لو أرسلتها عرافة غجرية غير محترفة تقع دائمًا، وهناك مَنْ يفرض أن الغجر قديمًا تعلموا مهارة الاستبصار في بيزنطة. (الغجر، ٢٠٢١)

كثيرًا ما تشاهد الغجريات العرافات يسرن سافرات في شوارع القاهرة خلال القرن التاسع عشر، وهن يستخدمن في عملهم أوراق اللعب (الكوتشينة)، وأوراق التاروت، والبلورة، والعرافة عن طريق قراءة الكف وقراءة الوجه، وقطعًا من الزجاج المُلون والنقود والأصداف يُلقينها على الأرض، ويستخلص تنبؤاتهن من وضعها العرضي. وتُمثل الصدفة الكبرى مستطلع الحظ، وتمثل الصدفات الأخرى وغيرها حوادث مختلفة، نكبات وخيرات يقدر حدوثها لذلك الشخص، قريبًا أو بعيدًا، أو عدم وقوعها أبدًا، حسب قربها أو بعدها من الصدفة الأولى. ويصيح العرافات عادةً بما يدل على أنهن يكشفن عن الغائب ويخبرن عن الحاضر، ويصيح العرافات أيضًا: "ندق ونطاهر"، فهن يقمن بعملتي الوشم والختان. (لين، ٢٠١٣)

وترتدي العرافة ملابس الطبقة الدنيا، جلباب بسيط أسود أو قاتم اللون، ليعكس صورة عن وقارها، مزرقش قليلًا أو بدون زرقشة، ومنديل للرأس يعلوه طرحة تلفها حول رأسها، وتحلي وجهها بحلق تعلقه في منطقة الأنف وأحيانًا تجد في فمها سنه ملونة، وتدق

الوشم على ذقنها، وترتدي إكسسوارات في معصم يديها غالبًا من النوع الرخيص، وتحمل في يديها بوئجة أو مشنة أو منديل مطوي فيه أدوات العرافة والتنجيم، وترتدي الأقراط في الأذن والعقود في الرقبة.

٤- الوشّامات (الدكاكات)

الوشم من الموروثات الشعبية القديمة التي تم تداولها في مختلف المجتمعات الإنسانية على مر العصور، ويُعَدّ جزءًا لا يتجزأ من حياة الناس اليومية آنذاك، لأنه يدخل في مجالات مختلفة من العلاج والتفاخر والتزيين، كما يمكن عده أحد الطرائق الخاصة في تزيين وتجميل الرجال والنساء قديمًا وفى العصر الحديث. (مراد، ٢٠٠٨) كانت مهنة "الوشم"، تنحصر بنساء من قبائل الغجر التي تُعرف شعبيًا باسم "النور"، أو "القرباط"، وكانت تطوف "الوشامات" بين القرى وتجمعات البدو في فترة الربيع، وخلال طوافهن في القرية يقمن بممارسة مهنة "الحف"، للنساء، (وهي مهنة معنية بإزالة الشعر من الوجه باستخدام الخيط ومادة مرطبة مصنوعة من عدة أعشاب طبيعية)، كما يقمن بوشم الفتيات الصغيرات اللواتي تجاوزن سن الست سنوات، ولم يكن الأجر ماديًا على تقديم خدماتهن للنساء، بل كن يتقاضين مواد عينية مثل: السمن العربي وبقية مشتقات الحليب، أو جلود المواشي، وغالبًا ما يتم إكرامهن بأجرٍ عالٍ إذا كانت النتيجة مرضية.

وتعشق الغجريات الوشم للحصول على جسم أجمل أو صورة أبهى أو لإظهار الشجاعة، لأنه بديلاً للحلي، ويحول الجسد إلى لوحة فنية تخاطب الآخر لإثارة إعجابه، فيصبح للوشم دلالة جمالية إغرائية. وتختلف رسوم وأساليب (الوشم) وأماكن وضعه على جسم الإنسان من بلد لآخر حسب الطبيعة الاجتماعية والمناخية والعادات والتقاليد الاجتماعية، والمناخية والعادات والتقاليد التي تسود البلد أو المجتمع. (خليل، ٢٠١٢)

وتثير الكتابات الوشمية التي توضع على الجسم خاصةً على الذراعين الاستغراب لعشوقها وغرابتها، فنجد مثلاً عبارات مثل (ولدت لكي أموت)، أو (لا تقترب مني)، أو (القبر بيتي) وما شابه ذلك، وفى بلادنا العربية تكثر كتابة "الدعاء" وآيات القرآن الكريم على السواعد. ويستخدم الوشم أيضًا للوقاية من الحسد والعين الحاسدة، ومن الأمراض العصبية والنفسية وكثيرًا ما تلجأ الأمهات لوشم أطفالهن في مناطق بارزة من الجسم كالوجه مثلاً للوقاية.

وكذلك يستخدم الغجر الوشم لأسباب عديدة منها شد انتباه الآخرين والرغبة في التميز، وأيضًا للتباهي والتفاخر وأحيانًا الاستبشار والتفاؤل به، كذلك يستخدمون الوشم لبعض الطقوس الدينية أو بعض المعتقدات الشعبية السائدة، كذلك بعضهم يعتبره تخليدًا لذكرى معينة تحمل في أنفسهم أثرًا، أو نوعًا من افتداء النفس، أو كدلالة للانتماء لمبدأ معين أو قبيلة معينة، أو لإخفاء العيوب والتشويهات، أو كوسيلة علاجية من الأمراض، أو كنوع

من السحر أو كوسيلة وقائية منه. ليرتبط الوشم بالجسد حاملًا المعنى الكامن في صاحبه يعيش معه حياته، ويموت بموته. (خليل، ٢٠١٢)

وعادةً ما تُطلق مسميات دلالية على نوع الوشم المراد رسمه، فيسمى الوشم تحت الجفن بـ "كحل القطا"، وعلى الخد يتم وشم "هلال ونقطة"، في حين أن الوشم ما بين الحاجبين يسمى بـ "هلال"، والدوائر على الخد تعرف باسم "الردعة"، أما تطريز اليد بوشم عريض مؤلف من مجموعة نقوش، أو خطوط نقوش طولانية متوازية، فيسمى بـ "وسادة ابن العم"، وهو اسم يُطلق أيضًا على الوشم المطرز للبطن، ومرجع هذا الاسم أن النساء يهيئن وسادة من أجسادهن لزوج المستقبل. وفي حين أن النساء كنا ينقشن أساور على المعصم، فإن النقوش حول الساق كانت تسمى "الحجول". (عبد اللطيف، ٢٠٢٠)

كما أن بعض قبائل الغجر يعتقدون بأن الوشم فوق جسد المرأة هو دليل على الاكتمال والنضج الجنسي لديها وعلامة العافية والخصوبة، فلا توشم إلا الفتاة المؤهلة للزواج، كما يقال إن الوشم يساعد على الحمل، وقد تجده عند قبائل أخرى أنه أداة انتقال من مرحلة الشباب إلى الكهولة. (مجلة الأسرة، ١٣٢٥)

أما بالنسبة للرجل الغجري، فالوشم يمثل رمزًا للقوة والشجاعة والتفاخر له، إذ تمثل بعض الوشوم المواقف البطولية للرجل، أو ترتبط بيوم أو بشهر مولده وتدل على ذلك الرسوم والرموز والكتابات التي يوشمها ومنطقة الوشم.

وتُعَدّ المرأة الواشم مبدعة تكتب لتضع لذة النص- أو الرمز- المكتوب بيد المتلقي ذكرًا كان أو أنثى لاكتشاف نهايات الجسد الإشتهائية، ينتقل عبرها الجسم من نظام الأيقونة إلى الجسم اللاهوتي. (خليل، ٢٠١٢) ومن خبرة إحدى الواشمات الغجريات القديمات نعرف طريقة الوشم: أن يوخز الجلد بمجموعة من الإبر، تكون سبعًا في العادة (كانت تعمل بالإبر التي تتخذ شكل الثلاثة إلى سبع أبر) تربطها بخرزة أو عجينة وتشدهن بواسطة خيط، وتعمد بعد ذلك إلى طمس الإبر بالسخام أو الفحم، على الشكل المراد رسمه، وتراعي في عملية الوشم الابتعاد عن الشرايين، وعلى الموشوم أن يتحاشى الماء حتى يجف الدم، وتبدأ العملية بالدق السريع مولدة في ذلك ألمًا كبيرًا لا يطاق، ووسط صرخات الموشوم تردد كلامًا للتخفيف عن آلامه، ثم يدلك الموضع بمزيج من سناج الخشب أو الزيت أو بمرارة الديك، ويفضل الطيور الوديعة في ذلك، أو بحليب المرأة ليضفي على جلد المرأة رونقًا وجمالاً ثم بعد أسبوع، قبل أن يبرأ الجرح، يوضع عليه معجون من أوراق السلق الطازجة أو البرسيم، أو بأوراق نبات البنجر الأبيض، لتكتسب البشرة لونًا أزرق مائلاً إلى الأخضر.

كما إنه يتخذ أشكالاً مختلفة وكثيرة، منها ما يكون على أشكال هندسية فائقة للتصوير، وأشكال الزهور والأشجار والرياحين، ومنها أيضًا ما يأخذ اشكال البروج والكواكب والهلال والقوس، وكثيرًا ما تغنى الوشوم الكاحلين بأنماط زخرفية متنوعة، وتتميز بما يتميز به الفن الإسلامي من حيث تحاشيه للتكرار الآلي للأشكال، فجمالية الوشم

كشكل فني يكمن في تنسيق الخطوط والأشكال، فالتصاميم تقوم على التناسق والتكامل الهندسي، وعلى الدقة والبساطة في التعبير. (مراد، ٢٠٠٨)

ومن أشهر فئات المجتمع التي ترتفع لديها ظاهرة استعمال الوشم على أجزاء الجسم قبائل الغجر الذين يشتغلون عادةً بهذا الفن ويحترفونه، وأيضًا يتزينون به، أضف إلى ذلك البحارة والسجناء وبعض الشقاة من أولاد الشوارع المشردين الذين لا مأوى لهم، وما زالت بعض "الوشامات" في مصر وأغلبهن من ضاربات الودع وقارئات الفنجان ممَنْ ينتسبن إلى قبائل الغجر، يجبن مدن مصر وقراها، وخاصةً في الصعيد حيث بسطاء الناس بحثًا عن زبائن، وما زال أغلب المصريين يعتقدون أن أفضل وقت لإجراء الوشم هو شهري (أغسطس وسبتمبر). (مراد، ٢٠٠٨)

ويعتقد الغجر في الوشم كثيرًا ويؤمنون بأهميته، واختيار أماكن الوشم عندهم يرتبط أحيانًا بأهميته من شخص لأخر، كذلك الموتيفة المرسومة لها معتقد ولها دلالتها. ومن السهل أن تعرف الغجري والغجرية بسهولة من الرسومات المدقوقة، ويكون في الوجه وغيره، أو على الأقل في أعلى الذقن وظهر اليد اليمنى واليسرى أحيانًا، وعلى الذراع اليمنى أو الذراعين معًا، وفي القدم، ووسط الصدر، والجبهة، وتوشم الأعضاء عادةً في سن الخامسة أو السادسة، وتقوم بعمله سيدة أو رجل من الغجر.

وبما أن لكل مهنة وحرفة تراثها الخاص المميز، وأزياء يُعرف بها أهلها. فتعرف الغجرية الوشامة بكثرة الوشم على وجهها ويديها، وتجد الملابس التي ترتديها تميل إلى الألوان الزاهية والعباءات المزركشة، فتجدها ترتدي العباءة أو الجلباب وتربط المنديل على رأسها وترتدي الأقراط في أذنيها والعقد في عنقها، وتتأثر كثيرًا بملابس المنطقة التي تسكنها، وتختلف عن نساء المنطقة في ملامحها الجريئة الحادة.

٥- الحدادون

الحدّاد هو حرفي يمتهن صناعة الأشياء من الحديد المطاوع أو الصلب عن طريق حدادة (تشكيل) المعدن أي باستخدام أدوات الطرق والقطع، فيقوم بتصنيع أشياء مثل: البوابات، والشبكات، وقضبان الدرابزين، وتجهيزات الإضاءة، والأثاث، والتماثيل المنحوتة، والمعدات والأدوات الزراعية، إضافة إلى مواد الزخرفة، والمستلزمات الدينية، وأواني الطبخ، وأيضًا الأسلحة. ظهرت حرفة الحدادة منذ القدم وقد تطورت هذه المهنة في العهدين المملوكي والعثماني وازداد عدد العاملين بها وأصبح لهذه المهنة أسواق تسمى باسم "سوق الحدادين" وهو مكان لتجمّع أبناء "الكار".

كثرة ترحال مجتمع الغجر، وعدم استقرارهم في مكان، جعلهم يمتهنون مهن عابرة تفرضها الشروط والظروف التي تدفع بالغجر إلى تعلم حرف من أجل الرزق، ولكنها حرف متحركة معهم شرط ألا تجعلهم مرتبطين بالمكان. فظهْرُ الحمار و"الخُرْج" هما الثابت الوحيد في عالمهم؛ حيث التنقل والترحال من مكان إلى مكان بحثًا عن لقمة عيشهم، التي

يجدونها بالتسول بما يملكون من فنون تارة، أو بالعمل بمهن متدنية من وجهة نظر المجتمع كالحدادة. (أبو الليل، ٢٠١٥)

وجميع القصص والأحداث المدونة والمنقولة تصف الغجر على أنهم حدادين من أنواع مختلفة، فهم يعلمون في الحديد والبرونز والذهب والمعادن الثمينة. وقد أظهر الكتاب المقدس أن قابيل كان هو جد كل الذين يعملون في النحاس والحديد. كما أن جماعات الغجر الكالدراس* يعملون في مختلف المعادن. (أسامة، ٢٠١٨)

وأكثر غجر مصر حدادون ونحاسون متجولون يبيعون السلع التي يصنعها غيرهم من طبقاتهم، وعلى الأخص مصاغ من النحاس لا قيمة له. (لين، ٢٠١٣) وتعتبر الحدادة المهنة الأم عند الغجر منذ القدم، وكل القصص والأحداث تصف الغجر على أنهم حدّادون، ولمهنة الحدادة لدى الغجر قصة هامة ترجعنا إلى معرفة أسباب ما حل بهم، وهي عندما قُرر صلب السيد المسيح، أُرسل جنديين لإحضار أربعة مسامير، لكن الحدادين رفضوا صنع المسامير، حينما علموا أنها لصلب المسيح، فقتل الجنديان حدادًا يهوديًا وأخر سوريًا، ثم قابلا حدادًا غجريًا، فصنع ثلاثة مسامير للصلب، وعندما بدأ صناعة الرابع، صار يسمع هاتفًا يردده الحدادون القتلى، وهم يحذرونه من صنع المسمار الرابع، لكن الغجري صمم علي صناعته، فأصبح المسمار مسحور ومنير بنور قوي، فتركه الغجري وحمل خيمته وهرب، ولاحقه المسمار المتوهج. (الغجري، ٢٠٢١)

لذا يقولون إن صناعة (الحدادة) أي طرق الحديد وتصنيعه إلتصقت بأجدادهم عقابًا لهم لأنهم صنعوا (المسامير) التي صلب بها اليهود المسيح، وما زالت لعنة المسمار الرابع تطارد الغجري من مكان إلى أخر، وهو مستمر في ترحاله، وظل يلاحق سلالات وأجيال الغجر أينما هربوا، لذا لا تجد لهم مكانًا مستقرًا، ولا لرحيلهم قرارًا على مر التاريخ، ويعتبر البعض ذلك سر صلب المسيح بـثلاثة مسامير فقط، وهي رواية شائعه بين الغجر إلى يومنا هذا. (شاهين، ١٩٩٨)

لذا قرروا أن تكون مهنة الحدادة مهنتهم الأبدية يكتوون بنارها ليكفروا عن الأذى الذي ألحقوه بالبشرية في شخص السيد المسيح. وتفوق الغجر على الحدادين المحليين وحلوا محلهم، لأنه ثبت أن ما يعملونه بأيديهم كان أجود مما يعمله غيرهم. ونجد منهم جماعة تسمى "الهنجرانية" من الجماعات التي تنتمي لجماعة "النّور"، اسمهم مشتق من "أهنكران" وتعني باللغة الفارسية حدادين. (شتا، ١٩٩٢) وكان الناس قديمًا يعتبرون الشخص الذي كان

* الغجر الكالدراس: وهي الفئة الوحيدة التي يُعتقد أنها جماعات غجرية أصيلة. وهم كما يقولون حدادين قبل كل شيء، ويعملون في الصفيح والنحاس، وقد أتو حديثًا من بلاد البلقان، وبعد ذلك وسط أوروبا ثم انقسموا إلى خمس مجموعات، ويعتقد أن الكالدراس هم رؤساء بقية الغجر، وأنهم أعلى قبائل الغجر شأنًا. وهم يبرهنون على ذلك برفضهم تزويج بناتهم من القبائل الأخرى من الغجر، ويقبلون الزواج من بنات القبائل الأخرى لأبنائهم. راجع: (أسامة، ٢٠١٨)

يُطلق شرارًا من طرقه على السندان (السندال) ذا قوة سحرية خاصة، وكانوا يعتبرون المكان الذي يُمارس فيه هذا السحر مكانًا سفليًا، على الرغم من أن تلك الحرف يختص بممارستها الذين يعيشون على هامش المجتمع مثل البدو والطبقات المنبوذة التي يخافها الناس ويحتقرونها. (علي، ٢٠١٤)

وقد ربطت الأساطير ربطًا واضحًا بين أنواع التجارة التي تتطلب استخدام النار كالحدادة وبين الفنون السحرية، وأكد البعض أنه في مستويات ثقافية مختلفة توجد علاقة قوية بين فن الحدادة والسحر والتنجيم وبين الرقص والغناء، وكل هذه حرف يختص بها الغجر. (أسامة، ٢٠١٨)

أما عن أسباب نفور بعض الغجر من المهنة وحرفة الحدادة، هي أن أبناء الحرفة يعانون من ضعف العائد المادي نتيجة ندرة العمل، لذا هجرها البعض، وانتقلوا للعمل في مجالٍ آخر كالشحاذة وغيرها بحثًا عن مصدر أوسع للدخل. وأيضًا بسبب النظرة الاجتماعية المتدنية من الجماعات الأثنية غير الغجرية تجاه الغجر.

والمظهر الخارجي للحداد الغجري في الغالب لا يتعدى "جلباب" بلدي ومن تحته الصديري (قطعة نصفية مربعة الشكل يصل طولها إلى الوسط تقريبًا بدون أكمام ومفتوحة من الأمام بصف من الأزرار)، وفوق الجلباب يرتدي كوفية مصنوعة من الصوف تلف حول الرقبة في فصل الشتاء، وعلى رأسه طاقية من الصوف، وفي القدم جورب وحذاء من الجلد الأسود، ويرتدي سروال طويل أسفل الجلباب.

وهناك صورة مغايرة لشكل الحداد في الوقت الحالي، تختلف باختلاف الأعمار بين المسن والشاب، فنجد الحداد الكهل والمسن لا تتعدى ملابسه الجلباب البلدي أسفله الصديري، وفي القدم شبشب نعل من الجلد، أو قميص افرنجي وبنطلون وطاقية، أما الشاب فيرتدي البنطلون والقميص أو الفانلة (التيشيرت).

٦- النحاسون (مبيض النحاس)

"مبيض النحاس" واحدة من المهن القديمة التي عرفتها معظم البيوت العربية في المدن والقرى وأشتهر بها رجال الغجر في مصر والدول العربية، والتي كانت تدر ربحًا كبيرًا على صاحبها، منذ أن راج الاعتماد على النحاسيات كأوعية مختلفة الاستخدامات، حيث كان النحاس في البيوت، في ذلك الزمن الماضي، هو الأهم، فكل سيدة تفتخر أمام جاراتها بما تمتلك من أواني نحاسية، وتحملها على رأسها في فخر لتذهب بها لمبيض النحاس لتعود بها كما كانت وقت شرائها.

وقد حظيت مهنة مبيض النحاس بأهمية كبيرة، حيث اعتادت البيوت قديمًا على اقتناء المواعين النحاسية، وهي مهنة تقليدية قديمة يقوم من خلالها الحرفي بتنظيف الأواني النحاسية ويزيل عنها طبقة الصدأ السامة ثم يطليها بطبقة من القصدير. (عكة، ٢٠١٥)

إن معدن النحاس سريع التأكسد، ويتحول لونه للغامق الأسود مع الاستعمال اليومي، وكان الاستخدام المتكرّر لهذه الأغراض يؤثّر في لونها، ولذلك يقوم أصحاب المواعين سنويًا بتبييض المواعين بمسحها بالقصدير مع الحرارة على يد حرفي التبييض الغجري الذي يُسمى (مبيض). (هاشم، ٢٠١٨)

كان الغجري (مبيض النحاس) له يوم محدد يمر فيه على القرية، يحمل معه عدة الشغل، ويمكث لأيام حتى انتهاء مهمته، تنتظره النساء ويتجمع الأهالي محضرين معهم أوانيهم النحاسية، يمر عليهم ليشعل نارًا ويعيد للأواني ألوانها الطبيعيّة عبر استخدام القصدير والنشادر والرماد والخيش والقطن. يأتي ويجلس أمام باب البيت أو في الحوش الكبير ليقوم بتبييض المواعين واحد وراء آخر. وكان بعض المبيضون يقيمون في دكاكين خاصة بهم، يستقبلون أوعية الزبائن التي كانت تتكدس، فينتظر الزبون دوره لأيام. (النجم، ٢٠١٣)

لقد تميز الغجر بالبراعة والمهارة في مهنة تبيض النحاس، وعُرفوا بها، فهم الذين اعتادوا تقديم الخدمات التي يبتعد الناس عادةً عن تقديمها. (عبد الرحمن، ٢٠٢٠) ولأن النحاس يحتاج إلي جهد كبير في تنظيفه، وسخونته الشديدة تحتاج إلى قدرة هائلة على الاحتمال، كان (مبيض النحاس) يقاوم الألم بالغناء الغجري الشجي، حتى لو كان غير مفهوم للسامع، لكنه يتوافق مع حركة جسده، وكان يحرك جسده بحرية وكأنه يؤدى رقصة، فهو رجل يتقن الرقص فوق الجمر بأقدام حافية، وإذا أنجز الإناء يقفز قفزتين سريعتين ليعلن اكتمال تبييضه ليبدأ في آخر، ويقابل المبيض أصحاب البيت وأطفال الحي للفرجة، وتقديم ما يلزم له من ماء وشراب.

ويقوم مبيّض النحاس باستعمال أدواته، حيث يحضر كمية من الرماد الأحمر، وماء النار، ليضعهما داخل الأواني النحاسية، ويضع طبقة كبيرة من الخيش ويقوم بالوقوف داخلها، ويدعكها بقدميه بحركة دائرية منتظمة مرددًا بعض الأغاني والمواويل، إلى أن يلمع النحاس وتزول من فوقه الطبقة الخضراء، ولا يغادر القرية حتى يكون أعفي أهلها وخلّص أوانيها من مخاطر الجنزار الأخضر. (المصري، ٢٠١٦)

ويرتدي مبيض النحاس الغجري "جلباب" بلدي عادةً مصنوع من قماش "اللينوه" ومن أسفله الصديري، وعلى رأسه يرتدي طاقية عالية الارتفاع. ويرتدي شبشب من البلاستيك أو الجلد، يقلعه عند البدء في العمل، لأنهم يمارسون هذه المهنة وهم حفاة الأقدام منذ القدم. وهناك بعض النحاسون يرتدون بنطلون وقميص، أو بنطلون وتي شيرت. أو "قميص" طويل بأكمام طويلة، يقوم برفعها إلى أعلى ما بعد الكوع بقليل ويثبت بشريط حتى لا تعوقه أثناء العمل، ويرتدي فوق هذا القميص "صديري" يصل إلى ما بعد الوسط بقليل له أزرار من الأمام، ويظهر أسفل القميص سروال يُشمر ليصل إلى منتصف الساقين. وتغطى الرأس بعمامة كبيرة أو طاقية.

٧- القرداتي

مهنة القرداتي واحدة من أقدم المهن في مصر. والقرداتي شخص يصطحب قردًا وحيوانات أخرى منها الكلب والحمار، يجوب الشوارع والساحات العامة والأسواق والأماكن المزدحمة ويلتف حوله عدد من الناس لكي يشاهدوا عروض القرد. فيقوم بالتطبيل على الدف ويغني ليجذب الأنظار، ويساعد القرد على القيام ببعض الحركات البهلوانية ليقدم بهم عرضًا مضحكًا، والتي كان من ضمنها "عجين الفلاحة"، و"نوم العازب". وكان القرداتي يقوم بتدريب وتعليم قرده بعض الحركات مثل: إلقاء التحية، العزف على الناي والعود واللعب بالعصا. (بدراوي، ٢٠١٨)

وأشتهر الرجال من الغجر في مصر بمزاولة مهنة القرداتي، وكانت تُعَدّ بمثابة مهنة تسول لكن بطريقة تحفظ ماء الوجه، وكانت مصدر تسلية كبير للطبقات الدنيا في مصر وبعض البلدان العربية، حيث تضفي البهجة من خلال القرد ومهاراته التي يكتسبها من صاحبه حين يبارز القرداتي والقرد بالعصا ويتبادلون الألعاب المختلفة، وهو يتقدمه ضاربًا على دف فتثير إعجاب القرد وتدفعه على الرقص والقيام بأعمال هزلية. (لين، ٢٠١٣)

وأحدث صور القرداتي هي تلك التي ينفرد فيها بقرد ممسوكًا رقبته بسلسلة تتصل بقبضة يد القرداتي، موجهًا غناءه للقرد وهو يضرب علي الدف ببضعة مقاطع صغيرة يؤديها بوقع سريع وبأسلوب مرح، (عمران، ٢٠٠٦) وكأنه أشبه بسيرك متنقل يخفف على الناس متاعب ومشاغل الحياة ويسترزق منها.

وقبل الانتهاء من العروض المختلفة في فقرة القرد والقرداتي، يقوم طفل موجود بصحبة القرداتي بتمرير طبق نحاسي ليجمع فيه ما يجود به المشاهدين عليه ليشجعوا الفرقة على الاستمرار. (عبد الرحمن، ٢٠٢٠) ويسكن القرداتي بعض العشش والأكواخ الصغيرة وإسطبلات الخيل التي يسكنها كل مَنْ يعمل في تربية الحيوانات الأليفة ويبيعها ومنها القرود، وكانت تسمي أيضًا (عزبة القرود)، والتي ما زالت تحتفظ باسمها حتى الآن على الرغم من انقراض المهنة.

ويتوخى القرداتي الغرابة في رداء القرد، فيلبسه ملابس عروس أو أمرأه منتقبة. أما عن ملابس المهنة، فكان القرداتي يرتدي جلباب طويل ينتهي بأتساع في الذيل وبفتحة رقبة على شكل سبعة، يضم الوسط بحزام يكون "بليزون" وأكمام طويلة تنتهي بأتساع ترفع إلى أعلى وتثبت بشريط حتى لا تعوق حركة العمل، ويرتدي أسفل الجلباب سروال يصل إلى منتصف الساقين وعلى الرأس "عمامة" كبيرة وبأقدام حافية، يحمل معه حقيبة يعلقها على كتفه يحمل فيها النقود، وأحيانًا يستبدلها بجاكت أو صديري طويل بجيوب كبيرة.

٨- الراقصات (الغوازي)

تُطلق كلمة الغوازي على كل مَنْ يمتهن الرقص من الغجر، تلك الفئة المتواجدة منذ عهود داخل المجتمع المصري والموسومة بنوع خاص من الأداء التعبيري الحركي المحبب

سرًا لدى الكثيرين، والممنوع علنًا الاعتراف به بين الكثير من الفئات الأخرى في المجتمع. وهو فن من أهم فنون وهوية الغجر، محبب إلى كثيرًا من العوام رجالًا ونساءً على حد سواء، ويعتبر أحد معالم الرقص في مصر، وكان علم من معالم الأفراح في القاهرة والدلتا والصعيد، بكل ما يضفيه أدائهم من بهجة ومتعة على الحياة الاجتماعية المصرية.

وكثيرًا ما نرى في قبور المصريين القدماء رسومًا لنساء يرقصن في حفلات خاصة على نغم آلات متنوعة، بطريقة تشبه رقص الغوازي، بل وتفوقه خلاعة، فنرى واحدة أو أكثر ترقص عارية تمامًا، على الرغم من وجودها أمام جمع من علية القوم، رجالاً ونساءً. وحيث أن أسلوب الرقص ذلك كان شائعًا في مصر منذ سالف الأزمنة، لذلك يحتمل أن يكون قد ظل مستمرًا إلى يومنا هذا، وقد يكون الغوازي المعاصرات منحدرات من طبقة الراقصات اللائي كن يسيلن المصريين في عصر الحضارة المصرية القديمة. (لين، ٢٠١٣)

لذا فقد اشتهرت مصر طويلًا براقصات الغجر، وأشهر أولئك الراقصات ينتمين إلى قبيلة مميزة تسمى "غوازي" والمرأة من هذه القبيلة تسمى "غازية" والرجل "غازيًا"، والغوازي يرقصن سافرات في الطرق العامة، لتسلية الناس، ويعتبر رقصهن أهم تسلية في الحفلات والموالد ولا يحترفن جميعًا الرقص، فقد يمتهنها البعض بدون احتراف، ولا يخلو رقصهن من الرشاقة، وأهم خصائصه هز الأرداف هزًا سريعًا، من جانب إلى آخر. ويأخذ الغوازي في الرقص بقدر من الحشمة، ولكن سرعان ما تبرق نظراتهن، ويسرع تلاطم الصنوج، وتشد حركة الجسم، فيعرضن رقصًا بترف ومرح. وينتشرون الغوازي تحديدًا في جنوب مصر ويرتحلون من مدينة إلى أخرى، مساكنهم بسيطة، وربما خيام، وقد تجد بعضهم يمارسن مهنة الوشم وختان الأطفال أو بيع الحلي وقراءة الطالع وتركيب الأسنان والتسول، ولا يتزوجن بغير أفراد القبيلة، ويدين الغوازي بالإسلام ويزعمون أنهم من نسل البرامكة. (عبد المقصود، ٢٠١٩)

إن ولع الغجر بالموسيقى عظيم، غير أنهم يعتبرون هذا الفن الساحر (مثل الرقص) وأنه يؤثر في العواطف تأثيرًا قويًا، ويدفع الرجل إلى المرح واللهو والرذيلة. (لين، ٢٠١٣) وهي من الحرف الرئيسة التي يعول عليها الغجر في معيشتهم، وما أكثر الممتهنين لهذه الحرفة من مجتمع الغجر، حيث تميزوا بحفاظهم على ألوان معينة من الموسيقى الشعبية وأضافوا عليها تعديلات وتطويرات لموسيقاهم تتوافق مع مهارتهم في الإيقاع.

واشتهر الغجر بموسيقاهم ورقصهم، وتتم إقامة حفلات الغجر بصورة مستمرة في مناطقهم باعتبارها عملية تجارية، يدفع الزبائن مقابل ذلك الكثير من المال، وقد يمتد الأمر لأكثر من الرقص. ونشأت بعض المهن للغجر على أنقاض مهنة الطرب، ومنها التسول والتجوال والمديح باستخدام بعض القصائد الشعرية المتداولة ومصاحبة آلة الربابة الموسيقية وذلك مقابل ثمن ضئيل.

وكان الغجر يمارسون الغناء من خلال المديح في البدء، والمديح تحول إلى غناء، والغناء احتاج إلى رقص، وفي هذه الأجواء دخلت نساء الغجر كراقصة غجرية تدخل البهجة على المشاهدين والمستمعين، وأصبحوا هم بهجة الموالد والتجمعات الشعبية. (الهاشمي، ٢٠١٢) وتعول الأسرة الغجرية كثيرًا على بناتها بسبب طبيعة هذه المهنة كونها تعتمد بصورة رئيسة على المرأة، ولذا فإن الأسر غالبًا تعتمد على النساء في إعالتها، وهذا ما يفسر ارتفاع المهور عند الغجر.

وفي السابق كان الغناء عند الغجر يعتمد بصورة رئيسة على مصاحبة آلة موسيقية تقليدية نشأت في البادية واستخدمها البدو، تعرف باسم آلة الربابة، وذلك يرجع لسهولة صنعها، وهي عبارة عن قطعة خشية أو صفيحة مربعة تستعمل بأحد جانبيها وتربط عليه خيوط من شعر ذيل الحصان، وعادةً تمتد طوليًا إلى ذراع خشبية يثبت ويتم العزف عليها باستخدام قوس من خشب أو سلك بشكل نصف دائري تقريبًا تربط إلى طرفيها بخيوط شعر مماثلة. أما الآن فيستخدم آلات موسيقية مثل العود، والكمان، وبعض الإيقاعات الشعبية مثل الطبل.

ومن أهم البلاد التي أسهم الغجر في تراثها الفني المجر ورومانيا وإسبانيا. والأصل عند الغجر أنهم أخذوا الموسيقى عن البلاد التي وجدوا فيها بما يتفق مع شخصياتهم، وأضافوا عليها بعض القوى الإبداعية. فقد توارث الغجري المتجول بكمانه وقيثارته في نهاية العصور الوسطى التراث الموسيقي القديم، وفي القرن السادس عشر اشتهر اسم عازف كمان غجري يدعى "ديمتريوس كارمن"، وقد اعتاد عازفو الكمان الغجر أن يصاحبوا قادة الجيش المجري إلى الحرب، وقد أُتبعت هذه الطريقة في نهاية سنة ١٨٤٨م. وفي القرن الثامن عشر سيطر الغجر سيطرة كبيرة على الموسيقى. (بيت الجغرافيا، ٢٠١٨)

كان رقص الغوازي في القرن الثامن عشر هو السمة السائدة في المجتمع المصري، وكانت الغوازي وقتها يرقصن في رقصات ثنائية بحيث تقف الواحدة في وضع مواجه للأخرى، وكن يرقصن في مجموعات ثنائية أو رباعية، يحاولن في أثناء رقصهن متابعة حركات بعضهن، كما يقدمن المنولوج والنكت، وتقوم الغجرية برؤية الطالع بين كل رقصة وأخرى، وكان ذلك يقدم في الشوارع والمقاهي والموالد والمناسبات، وُيستأجر الغوازي لتسلية جمع من الرجال في منزل الأثرياء. (عدلي، ٢٠١٢)

وكان لرقص "الغوازي"، بكل ما تضفيه أداءاهم من بهجة ومتعة على الحياة الاجتماعية المصرية الفضل في المحافظة على الموروثات الشعبية المصرية، والتي يأتي على رأسها "السيرة الهلالية" والأغاني الشعبية "الصبيته"، فلقد ارتبطت السيرة الهلالية في روايتها على نحو غنائي مصحوب بفرقة موسيقية- بالغجر، ولولا الغجر لضاعت هذه السيرة الهلالية كما ضاع غيرها من تراث مصر الفني، وفقدت مصر جزءًا مهمًا من هويتها

الثقافية، فالغجر تخصصوا في رواية السيرة الهلالية على نحو احترافي، واعتبروها "لقمة عيش"، أو مصدر رزق لهم، يعيشون عليه.

وخير شاهد على ذلك أنه نظرًا إلى اعتماد الفرقة الموسيقية الهلالية قديمًا على آلة "الطار" في أداء الهلالية وغنائها، وانتشر عن حرفة الغوازي وتمكن الغجر منها المثل الشعبي القائل: "اللي يضرب ع الطار أصله مسلوب". وبسبب أن الهلالية قد أصبحت مصدر رزق بالنسبة إلى هؤلاء الغجر، فإنهم قد تمسكوا برواية الهلالية، وحرصوا على أن تظل مستمرة في المجتمع المصري، تعبر عنه وعن قضاياه المعاصرة، فغيروا في مضمونها على النحو الذي يتماشى وطبيعة المجتمع المصري الحديث؛ وذلك حتى يظل لها صلة بالجمهور، فيحرصون على دعوة هؤلاء الشعراء لإحياء مناسباتهم الاجتماعية والدينية. والأمر نفسه نستطيع أن نلاحظه بوضوح مع فنون شعبية أخرى ارتبطت بالغجر، وارتبط الغجر بها. فالغجر يضفون على الحياة نوعًا من البهجة والمتعة على المناسبات الاجتماعية كالأفراح والمناسبات الدينية كالموالد. (أبو الليل، ٢٠١٥)

أما عن ملابس الغوازي، فهن حريصات على ارتداء أفخر أنواع الملابس المزركشة الناصعة والمذهبة المصنوعة من الحرير الشفاف والرقيق، بعضه مشقوق الصدر من المنتصف، ويتحلين بحلي كثيرة والعملات الذهبية، ويتكحلن ويتخضبن، ويلبسون ملابس تكشف بعضًا من الجسد، وثياب شفافة مشقوق صدره إلى منتصفه تقريبًا، ويلبسون الطبقات الكثيرة والألوان المبهجة. وقديمًا كان على رؤوسهن أنواع مختلفة من أغطية الرؤوس الشائعة للنساء من الكوافي والطواقي والطرابيش والشاشات الملونة وغيرها.

ويستخدمون الوشم الأزرق أو الأسود على الوجوه والأذرع والصدر، ويتحلين بحلي كثيرة من أنفس الحُلي من عقود، وأساور، وخلاخيل، ونقود ذهبية، ويلبسن الأقراط في الآذنين وفي الأنف (الخزام)، ويربطن الوسط بحزام أو شال من المعدن أو من الحرير. واستخدموا أيضًا التلي ذي الخيوط المعدنية العريضة على قماش حرير خفيف يشبه الشباك الدقيقة، وساعدهم في ذلك رقته وخيوطه المطرزة بالخيوط المعدنية الفضية أو الذهبية اللامعة ومظهره الجذاب. (عبد المقصود، ٢٠١٩) وقد يضعن خزامًا في الأنف، ويتكحلن، ويختضبن والكثير منهن جميلات للغاية.

لقد استلهم من حياة الغوازي الكثير من الفنانين والمصممين، كما داعبت أقلام وبنات أفكار الكثير من الأدباء مما أثمر لنا قصصًا ومسرحيات ومسلسلات وأفلامًا سينمائية زادت الغموض غموضا وأثَّرت سلبًا وإيجابًا في المجتمع. (عبد الغفار، ٢٠١٩)

٩- البهلوان

يُنسب إلى غجر مصر اهتمامهم بجانب مهم من ألوان الفنون الشائعة في الحياة المصرية ألا وهي الألعاب البهلوانية واستعراض المهارات الحركية الخاصة، كما أنهم أصحاب باع في عروض خيال الظل وعروض الأراجوز، والرقص على نغمات صندوق

البيانو، والعروض ذات الطابع المسرحي الساخر، وصناعة وتشغيل أدوات المراجيح، وألعاب المفرقعات، والرسم على عربات السيرك، وكذلك رسم الصور الخاصة بعروضهم الفنية. (عبد المقصود، ٢٠١٩)

ويقوم بعض النّور بحرفة البهلوان، يُضحكون العالم في كل الأوقات حتى في زمن الحرب والبكاء، يخفون همومهم وتعاستهم وفقرهم في ملامح مبتسمة وملابس مبهجة حتى لو سوداء اللون ليحولوها بلمسة عصاه إلى نجاح وعبقرية وعظمة. وهي تُعَدّ من المهن التي اشتهر بها فئات الغجر في المجتمعات المصرية والعربية والغربية. وتطلق هذه التسمية "البهلوان" في الواقع على مَنْ يمارس الألعاب الرياضية أو المبارزة أو أعمال البطولة. وكان أمثال هؤلاء الغجر يعرضون قبلاً قوتهم ومهارتهم بصفتهم تلك، أما الأن فأعمال البهلوان تكاد تنحصر في الرقص على الحبل.

وفي القرن التاسع عشر كان يزاول هذا الفن أفراد من قبيلة معينة من الغجر المصريين. وقد يربط الغجري البهلوان الحبل في مئذنة مسجد على ارتفاع عظيم من الأرض، ويمتد مئات الأقدام مستندًا في عدة مواضع على سوار مثبتة في الأرض. ويستعمل الراقص دائمًا مدرة طويلة للتوازن، وقد يرقص على الحبل أو يسير عليه منتعلًا قبقابًا، أو مثبتًا قطعة من الصابون في أسفل كل قدم من قدميه، أو معلقًا طفلًا بواسطة حبل على كل كعب من كعبيه أو القفز في وسط طوق، ويجلس فوق صينية مستديرة توضع على الحبل. (لين، ٢٠١٣) وأقوى صور البهلوانيين من الغجر تتمثل في الشخصية الغجرية المشهورة "شارلي شابلن" أيقونة السينما الصامتة.

وتتسم ملابس البهلوان بالطابع الفكاهي المريح وتختلف من غجري لآخر حسب أسلوبه الساخر، ووجهة نظره في إقناع المتفرجين على الضحك، فقد يرتدي سروال فضفاض، وحذاء ضخم، مع عصا وقبعة، وقد يرتدي آخر لباس متناقضًا في شكل سروال مبالغ في اتساعه، ومعطف ضيق، وقبعة صغيرة جدًا وحذاء ضخم. وبوجه عام فإن أهم سمة في ملابس البهلوان هي توافر عنصر الراحة ولا تخلوا من السروال والقميص والتيشيرت أو الجاكت.

خاتمة:

حافظت الثقافة الغجرية على روح الترحال والبداوة، وإن لم يرحلوا، فكانت الأفضلية دائمًا للعمل الحر والقوانين الخاصة بهم. مهن الغجر تخضع لطبيعة حياتهم المتنقلة، يمارسون مهن وحرف بعينها، فيقوم بعض رجال الغجر بكي الحمير والجمال، ويقوم البعض الآخر باصطياد الثعابين لبيعها. ويعمل بعض الغجر في بيع العطارة، كما أن بعضهم يتاجرون في الردة والملح. ويقوم البعض الآخر بأعمال حرفية مثل عمل البرادع، وإصلاح مواقد الكيروسين والكوالين، والغناء على الربابة في مقابل المال.

وتمارس النساء أعمالًا متعددة فهن راقصات شعبيات. وتعمل الكثيرات منهن في ضرب الودع ورؤية الطالع أو العلاج الشعبي. كما تقوم بعض الغجريات ببيع الكحل والخيط والصابون، كما تمارس أخريات عملية الوشم. وعلى الرغم من كل هذه الحرف والمهن، إلا أن الاستجداء بصور متعددة هو الظاهرة الأساسية التي يشتهرون بها، والتي يقوم بها الرجال والنساء على السواء، غير أن هذه المهنة تعتبر عملًا خاصًا بالنساء بصفة أساسية، فهناك أسر غجرية تعتمد على استجداء المرأة كمصدر وحيد للدخل.

قائمة المراجع العربية والأجنبية

أولاً: المراجع العربية

- أبو الليل، خالد (٢٠١٥). "فضائل الغجر على أهل مصر"، جريدة اليوم السابع.- منشور بتاريخ ٢٢ نوفمبر ٢٠١٥، ومتاح للاطلاع بتاريخ ١٧ يناير ٢٠٢١ . (www.youm7.com).
- أسامة، حسن (٢٠١٨). عرض كتاب: "جماعات الغجر: مع إشارة خاصة للغجر في مصر والبلاد العربية".- موقع بيت الجغرافيا -.(https://geo-house.info) منشور بتاريخ ٢٣ ديسمبر ٢٠١٨. ص١٧، ص٣٣ – ٣٤.
- بدراوى، طارق (٢٠١٨). "القرداتي" (موسوعة كنوز أم الدنيا)، جريدة أبو الهول الإلكترونية.- عدد (٣)، متاح منذ مارس ٢٠١٨، تاريخ الاطلاع ١٦ يناير ٢٠٢١ . (http://www.abou-alhool.com).
- بدراوي، طارق (٢٠١٨). "تعرف على مهنة الغموض والجرأة والمجازفة"، جريدة أبو الهول.- عدد (١٢) ٢٠١٨. متاح بتاريخ ٢٥ فبراير ٢٠٢٠-(http://www.abou-alhool.com) .
- بيت الجغرافيا (٢٠١٨). السمات الثقافية والاجتماعية للغجر، موقع بيت الجغرافيا.- منشور بتاريخ (٢٠١٨/١٢/٢٢) متاح بتاريخ ٢٠٢١/١/١٧-(https://geo-house.info) .
- الجرادي، أيمن (٢٠١٩). «مهنة الحاوي» ما بين الحقيقة والنصب، جريدة المواطن.- منشور بتاريخ الثلاثاء ٥ مارس ٢٠١٩(https://www.elmwatin.com) .
- حيدر، جمال (٢٠٠٨). الغجر: ذاكرة الأسفار وسيرة العذاب.- الرباط: المركز الثقافي العربي. ص٨٠ – ٨١.
- خليل، عبد الحكيم (٢٠١٢). "التجليات الرمزية للوشم في المعتقد الشعبي بين الخصوصية الثقافية والثقافة الشعبية"، المؤتمر الرابع للفن والتراث الشعبي الفلسطيني: واقع وتحديات.- نابلس: كلية الفنون الجميلة، جامعة النجاح الوطنية. ص٩ – ١٠، ص١٣، ص١٦.
- شاهين، طلعت (١٩٩٨). "يرفضون عمليات التدجين ويعشقون حياة الترحال: الغجر أبناء الريح والشمس والعذاب"، موقع البيان (الإمارات).- منشور بتاريخ ١٩٩٨/٥/١١، تاريخ الاطلاع ١٥ يناير ٢٠٢١.(www.albayan.ae) .
- شتا، إبراهيم الدسوقي (١٩٩٢). المعجم الفارسي الكبير.-القاهرة: مكتبة مدبولي. (ج٣).
- شوشة، زيزي (٢٠١٦). "الغجر في مصر: بهجة وسط الخراب"، موقع رصيف ٢٢.-

منشور بتاريخ ٢٠١٦/٤/٢٥. ومتاح للاطلاع بتاريخ ١٦ يناير ٢٠٢١ . (https://raseef22.net)

- عبد الرحمن، محمد (٢٠٢٠). "القرداتي": مهنة تسلية المصريين هل أصبحت من المهن المنقرضة؟"، موقع اليوم السابع.- منشور بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/١٤، تاريخ الاطلاع ١٦ يناير ٢٠٢١(www.youm7.com) .
- عبد الرحمن، محمد (٢٠٢٠). "مبيض النحاس: مهنة عرفها العرب منذ القدم هل لا تزال موجودة؟"، موقع اليوم السابع.-منشور بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٦، تاريخ الاطلاع، ١٥ يناير ٢٠٢١ (www.youm7.com) .
- عبد الغفار، تامر يحيى (٢٠١٩). "رقصات الغوازى".- مجلة الثقافة الشعبية (مملكة البحرين)، العدد (٤٥) السنة (١٢) ربيع ٢٠١٩. ص١٣٩.
- عبد اللطيف، محمود (٢٠٢٠). "الوشم عند نساء الشرقية: إرث لا مادي تناقلته النسوة عبر أجسادهن"، موقع وكالة أنباء آسيا.- منشور بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠٢٠، ومتاح للاطلاع بتاريخ ١٥ يناير ٢٠٢١(www.asianewslb.com) .
- عبد المقصود، سارة إبراهيم محمد (٢٠١٩). دراسة تأثير البيئة الاجتماعية على الزي الشعبي للغجر والاستفادة منه في استحداث تصميمات أزياء معاصرة، أطروحة ماجستير/ إشراف: أحمد الطحان، أحمد صباح الدين.- دمياط: جامعة دمياط، كلية الفنون التطبيقية. ص٧٣، ١١٠ – ١١٢، ص١١٧.
- عدلي، رشا (٢٠١٢). القاهرة: المدينة والذكريات.– القاهرة: دار نهضة مصر. ص١٥٧.
- عكة، أحمد علي (٢٠١٥). "آخر مبيّض نحاس في مصر"، موقع ٢٤ الإخباري.- منشور بتاريخ ١٢ ديسمبر ٢٠١٥، ومتاح بتاريخ ١٦ يناير ٢٠٢١(https://24.ae) .
- علي، مجدي إبراهيم (٢٠١٤). "الغجر: شعب جوال حير الباحثين"، المجلة العربية، العدد (٥٣٢)، أغسطس ٢٠١٤، تاريخ الاطلاع ١٥ يناير ٢٠٢١ . (www.arabicmagazine.com).
- عمران، محمد (٢٠٠٦). موسيقا الغجر المصريين.– القاهرة: مطبعة كرست، ٢٠٠٦. ص٢٠٩.
- غارثيا، خابيّر آسينسيو (٢٠١٩). حكايات غجر إسبانيا الشعبية/ ترجمة: رشيد برهون.- أبو ظبي، دائرة الثقافة والسياحة. ص٣١.
- الغجر، (٢٠٢١). مقال بعنوان "كيف يخمن الغجر: عرافة الغجر سحر الغجر أسطورة أم حقيقة؟".- متاح بتاريخ الجمعة ١٥ يناير ٢٠٢١(https://lkvodokanal.ru/ar) .

- الغجري (٢٠٢١). مقال بعنوان "الغجري: ع الأصل دور"، متاح للاطلاع بتاريخ ١٥ يناير ٢٠٢١.(https://akhbarak.net) .
- لين، إدوارد وليم (٢٠١٣). المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم/ ترجمة: عدلي طاهر نور.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص٣٠٧، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤.
- مالوس، لويس (٢٠١٣). انطباعات عن مصر/ ترجمة: رشيد برهون.- أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة. ص٤٣.
- مجلة الأسرة، ع١٣١، صفر ١٣٢٥ه.
- مراد، بركات محمد (٢٠٠٨). "فن الوشم: رؤية أنثروبولوجية نفسية"، مجلة الثقافة الشعبية (البحرين).- العدد (٣)، (أكتوبر- نوفمبر- ديسمبر) ٢٠٠٨.ص٦٦ – ٦٨.
- المصري (٢٠١٦). التراث الشعبي المصري، موقع الهيئة العامة للاستعلامات، ٢٠١٦/٥/١٩. (www.sis.gov.eg)
- المعجم الوسيط.- القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤. ص٢١٠.
- النجم، إسماعيل (٢٠١٣). "تبييض النحاس باقية ما بقي النحاس"، موقع سورية الإلكتروني.- منشور بتاريخ ٢٠١٣/٠٣/١٣. تاريخ الاطلاع ١٥ يناير ٢٠٢١ . (http://www.esyria.sy)
- هاشم، خليل إبراهيم (٢٠١٨). "١٥ مهنة تراجعت في مصر"، موقع حقوق الناس.- منشور بتاريخ ٢٦ مايو ٢٠١٨. ومتاح للاطلاع بتاريخ ١٦ يناير ٢٠٢١ . (www.peoplesrights.net)
- الهاشمي، حميد (٢٠١٢). تكيّف الغجر: دراسة أنثروبولوجية اجتماعية لجماعات الكاولية في العراق.- بغداد: دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع. ص١٢٠.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

Pognon, Paranormal (2012). Article du journal provençal le Ravi, September 2012. Archived 6 March 2016 [Date mismatch] at the Wayback Machine.